

الدرس الحادي عشر تاريخ التشريع الإسلامي

كان عصر الإمام أبو حنيفة عصر الفرق التي نشأت حول الجسد الإسلامي
لا في قلبه لا في قلبه كانت بمثابة **الحوادث**

فقد ظهرت المعتزلة التي تأثرت بالفلسفة اليونانية وظهرت فئة تسمى المرجئة
وأظهرت بدع في عقول الناس لسنا بصدد البحث عن عوارضها وفئة تسمى
الهمجية وأيضاً لها بدع بسبب الوسوس واشتد ساعد الخوارج وتبلور مذهب
الشيعة ولكن جمهرة المسلمين والممثلين بعلماء التفسير والحديث والفقهاء الإسلامي
كانوا بعيدين عن هذه الخرافات والوسوس.

ولكن وحدة هذه الجمهرة لم تظهر إلا هذه الفترة وبعد ظهور الأئمة الأربعة
واشربت أعناق الناس بأخذ الفقه منهم وازداد إقبال الناس على الأخذ من
علومهم لحالهم من عبقرية نادرة في استنباط الأحكام وتدوين قواعد النصوص
وقد جمعوا الدر في أمور العقيدة مما قطع الطريق على تلك الفرق وبصروا الناس
ببدع هؤلاء المبتدعة.

مثلاً: المعتزلة كانوا أعداء لعلماء الحديث وربما يسخرون منهم ولا يأخذون منه
ومثل ذلك الجاحظ وهو من المعتزلة ونجده في كثير من المناسبات يسخر في كتبه
بأسلوبه اللاذع من علماء الحديث.

والإمام أبو حنيفة اعتمد في فقهه على الحديث وعلم تلامذته على ذلك فأبو
يوسف أخذ علومه لمدة ثلاث سنوات من الإمام مالك.

والإمام لم يسر أو يخض في بدع العراق التي وجدت في عصره من المعتزلة
والقدرية والجهمية بل سار على منوال الصحابة فقد صح في كتاب الفقه الأكبر
أنه كان يناقش ويجادل ويبطل بدع المبطلين والجاهلين وأهل البدع والزيف.

وقد ثبت أن الإمام لقي طاء بن أبي رباح في مكة (وقد جلس الإمام أبو حنيفة لأهل الحديث ولعلماء الشيعة الزيدية يأخذ منهم).

فقال له: أن من أهل القرية التي فرقوا دينهم وكانوا شيعاً (العراق) فمن أي الفصائل أنت؟ فقال له الإمام: أنا من الصنف الذي لا يسب السلف والذي يؤمن بالقدر والذي لا يكفر بالمعصية، هذا الكلام يوضح لنا موقف الإمام أبو حنيفة وهو الموقف الذي جمع الناس على صراط أهل السنة والجماعة.

إن موقف الإمام أبو حنيفة من الشيعة هو موقف الأئمة الأربعة بل هو موقفنا الذي سنلقى الله عليه هو الحب والانتصار ولآل البيت وسمعوا قول الشافعي:

إن كان رفضاً حب آل محمد

فليعلم الثقلان أبا

رافض

ولقد عرف الإمام بتشيعه (إن صح التعبير) لآل البيت ولكنه يقول: إن أبو بكر أفضل من عمر وعمر أفضل من عثمان وعثمان وعلي في منزلة واحدة.

أي إن حب آل البيت حباً شعورياً فطرياً، حب تفرغ عن حبه للمصطفى عليه الصلاة والسلام وليس حباً مذهبياً ينحرف عن صراط أهل السنة والجماعة.

❖ ذكر الإمام أنه التقى محمد الباقر وهو من أئمة الإمامية في الحجاز

فقال له: ما تقول أصلحك الله في أبي بكر وعمر فأثنى عليهما وفاض في

الحديث عنهما وعن مآثرهما فقال له: إن بعض أهل العراق يقولون إنك تتبرأ

منهما! فقال: معاذ الله كذبوا وربّي الكعبة، أتعلم من هو عمر **لا أبا لك** إنه

الذي زوجه علي من ابنته أم كلثوم وهل تعرف من هي أم كلثوم **لا أبا لك** إن

جدها رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدتها خديجة خير نساء الجنة وأمها

فاطمة الزهراء وأباها علي فلو لم يكن عمر أهل لها لما أعطى علي لعمر ابنته، إذأ

أبو حنيفة كان يقدم أهل البيت ولكن ليس لدرجة أن يصبح متشجعاً في ذلك

بحيث ينقص الصحابة حقهم، والإمام كان معاصراً للفتنة التي حصلت بين علي ومنافسيه وكان يقول: (ما قاتل علي أحداً إلا وعلي أولى بالحق منه) (بعد ذهاب عصر أبي بكر وعمر).

❖ ما الذي جعل الإمام يسير على الصراط الوسط؟

لأنه لم ينطلق من مذهبية يتعصب لها ولا من عناد ولا تشنج بل من قناعة إيمانية وحب طبيعي فطري لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولآل البيت والصحابة هذا الذي جعل الإمام يسير معتدلاً ثم إنه أخذ الحق من جميع الأطراف فلم يعرض عن الصحابة أو آل البيت بل أعطى كلاً منهم منزلته والاعتدال هو الذي جمع الأئمة.

❖ إن ترتيب الخلفاء ترتيب إلهي حكيم، وانظر ما سيحدث لو أن عمر هو الذي استلم الخلافة أولاً لما وفق للعمل الذي قام به أبو بكر حتى أن عمر كان ضيقاً أمام أبو بكر في قيادته، وانظر لو أن عثمان استلم الخلافة بدلاً من عمر.

❖ ما السبب في انتشار مذهب أبي حنيفة على حساب معاصريه على الرغم من أنهم لا يقلون عنه علماً وفقهاً من أمثال النخعي وعلقمة بن قيس والأوزاعي وحامد شيخ الإمام وعطاء بن رباح.

الجواب: هناك أسباب توفرت للإمام أبو حنيفة لم تتوفر لغيره.

1- لقد كان للإمام تلاميذ هم أئمة أفذاذ قيدهم الله له كانوا يكتبون ويدونون فتاويه واجتهاداته ولم يهيب ذلك للأئمة الآخرين.

مثل ذلك: الإمام أبو يوسف فما نقرأه في كتب أبي يوسف - الخراج - الرد على سير الأوزاعي - الخلاف بين أبي حنيفة وبين أبي ليلى كلها ملئها أبو يوسف من فقه أبي حنيفة.

والإمام محمد ملقى ودون وزاد عما قام به الإمام أبي يوسف فدون كل فقه الإمام أبي حنيفة وزاد على ذلك الاجتهادات الكثيرة.

وهناك كتب تسمى ظاهر الرواية للغمام الشيباني أيضاً هي فقه الإمام أبو حنيفة وقام كلاً من الإمامين بجمع الأحاديث التي يرويها أبو حنيفة (غير كتاب الآثار) هي موزعة بين الكتب.

أما بقية العلماء فلم يقيض لهم تلاميذ يدونون فقههم في مراجع ومصنفات.
2- شاء الله أني يكون الإمام أبي يوسف قاضياً لثلاثة خلفاء المهدي، الهادي ثم هارون الرشيد وسمي قاضي القضاة، والإمام أبو يوسف هو تلميذ الإمام أبو حنيفة فيقضى على مذهبه والمدونات التي دونت على مذهبه.

3- الإمام أبو حنيفة مولع بالفقه الفرضي (الأريتين) فقد كان يفرض الوقائع وإن لم تقع يتأمل فيها ويعطي كل منها حكم وإن لن تقع، وهذا طبعاً يعطي فقهه غزارة وسعة لاسيما عندما يكون هذا الإمام خبير بعلم الاجتماع والمشكلات التي ينتج بعضها من بعض، فهو لا يفرض المستحيل بل المتوقع حدوثها، لقي الإمام أبو حنيفة قتادة رضي الله عنه وهو عالم من أهل الحجاز فقال له ما تقول في رجل غاب عن أهله أمد طويل ولم يعلم عنه وتزوجت امرأته رجل غيره، وبعد فترة عاد إليها ما تقول فيه؟ قال له قتادة أوقعت هذه المسألة قال: لا فقال له قتادة وقد ظهر الغضب على وجهه فلماذا تسألني إذاً عن هذا الأمر فقال له الإمام الكلام التالي: (إننا نستعد للبلاء قبل وقوعه (نزوله) فإذا وقع، عرفنا الدخول فيه والخروج منه) هي حادثة لم تقع ولكن متوقع حدوثها في عصر الفتوحات حتى لا تقع المرأة في ضلالة من رأيها وترتكب حرام بعملها، هذا الأمر أعطى فقه الإمام سعة كبيرة تحوي كل الوقائع، هذا الشيء كان مدعاة للناس أن يتعقبوا الفقه الأوسع والأكثر استجابة وهذا ما حصل وقد كان وحيداً في عصره.

ملاحظة: بعض المبطلين يطرحون الكثير من أسئلة الشك والخداع يقولون هل تتبع أبو حنيفة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولماذا أنت حنفي قل أنا محمدي.

نقول: أن الإمام لم يخترع مذهب أوجده بنفسه نافس به كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالإمام وجد في عصر اتسعت الفتوحات وكثرت المشكلات والمسائل والداخلين على الإسلام **وتعددت** الأصقاع والمدن وأصبح الناس بحاجة على معرفة الحكم الشرعي للأمور التي تواجههم والإمام هو أحد الأئمة الذين وجدوا في هذا العصر والذين كانوا على مرتبة عالية من الفهم والذكاء والقدرة على الإستبطاء واستخراج الأحكام طبقاً لما يجدوه في القرآن والسنة، وبالتالي وكما هو في كل عصر فإن الناس الذين لا يستطيعون الاجتهاد أو دراسة الشريعة فعليهم إتباع أي من الأئمة أرادوا { فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون } وأهل الذكر هم حفظة شرع الله المدنون لأحكامه، وأبو حنيفة ما استخراج الأحكام من عقله وإبداعه بل مما وجد في كتاب الله وسنة رسوله اعتماداً على قواعد التشريع.

❖ كلاً منا يخطأ وقد يصح **الإمام** الضعيف أو يضعف الصحيح ولكن هذا لا يغير مكانته وأهليته للإتباع ومثل ذلك الأوزاعي وكيف تغير قوله عنه رغم ذلك كان يخطئه في مسألة وثلاثة بل عشرة ولكن هذا لم يغير من مكانة الإمام أبو حنيفة عند الإمام الأوزاعي، إن الرجل الذي يبحث وينبش عن الأخطاء في الفتاوى ويتخذها حجة للهجوم على الأئمة رجل يتحرك من الخفاء **جبت** فلو كان الإمام حياً لما استطاع أن يواجهه بهذا الذي يريد مثل ذلك الإمام الأوزاعي عندما سأل الإمام أبو حنيفة لماذا لا ترفعون أيديكم في الصلاة فأجابته فسكت، إن خطأ الأئمة لا يكشفه إلا أئمة مثلهم إن أخطاء المجتهد **لا تزلق** من مكانته

وأهليته للإتباع وليست ذريعة للتهجم عليه مصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال [من أشراط الساعة أن تلعن هذه الأمة أولها].
اللهم إنا نِسْألك أن ترزقنا الأدب مع علماء دينك اللهم إنا نعوذ بك من
الخور بعد الكور ومن الانحراف بعد الاستقامة اللهم اجعلنا نصراء لدينك داعين
لشريعتك.